

بعد عصر كل يوم والحس الأبد

قصة بقلم شريف الراست

في تلك اللحظة عوى الكلب .. ثم ساد الصمت .. وتركت فطوم هذا الجدال الذي لا فائدة منه ، ووقفت أمام المرأة . كان عليها أن تخضع - مثل البارحة - لدغدغة حسرة معنادة لدى إعادة ثياب الزينة ، كل غرض إلى مكانه . ثم ترتب بعد ذلك زجاجات العطر وعلب المساحيق فوق الرف ، كيما تتفرغ إلى الوقوف ساعة أو ساعتين أمام المرأة ، تحمل الصباح بيد ، وتحمل في عينها اليمنى المظلة بزهرة . بقعة شحمية بيضاء لعينة تقطي بؤبؤ عينها اليمنى .

وعوى الكلب مرة أخرى . وكان نمة من يفرع الباب . ففطمت الفتاة حالة صلاتها الاليمية وقالت : « هذا عبود يريد مفتاح القبو .. هذه آخر عربة فطن من أرضنا » . ثم تناولت المفتاح من يد أمها وذهبت لتفتح الباب .. « ولكن يا فطوم . أرم له المفتاح من هنا ، من الشباك » . لكن الفتاة تابرت في طريقها : « المجنونة .. أصبحت تخاف أن أهب نفسي للأجير » . ثم ابتسمت وهي تتمتم : « ليته يتحرش بي ولو بقمزة .. فهو رجل على كل حال » .

وكادت هذه الفكرة تستقطب أحلام فطوم الليلة وغدا وبعد غد . من يدري ؟ . إن كل ما في عبود من عيب أنه فقير . وكم من رجل فقير تزوج امرأة غنية وعاش معها عمرا سعيدا .. على أن الوالدة قالت وهي تمضغ آخر لقمة من طعام العشاء : هل رأيت اليوم أيضا ؟ فقفر القلب البائس بين ضلوع الفتاة الكبيرة وقالت : من تصعبين؟ ابتسمت الام وقالت : من أقصد ؟ . سلمان لا غيره .. هل رأيت اليوم أيضا ؟

فالت فطوم : دعينا من هذا الحديث .

- ولكن ألم تخبريني منذ أيام الربيع بأنه لحق بك إلى البيت ؟
- يا أمي دعينا من هذا الحديث أرجوك .. كان ذلك في أيام الربيع . وها نحن الآن قد عدنا إلى الشتاء .. انتهى الأمر . سوف تمر السنون وراء بعضها . شمس ومطر . وكفى .
- لا تقنطي يا فطوم فانت فتاة جميلة .. ثم إن كل شباب القرية يطمعون في ثروتك .

- يا أمي الفتيات الجميلات تزوجن منذ زمن بعيد .. أصبح لكل منهن أولاد وبنات .. والشباب لم يبق بينهم عازب .
- وسلمان؟! أذكرى شباب القرية ، ومتعلم وخلق ، ولم يتزوج بعد .
- لكنه لم يطلبني .

- إذن فاطلبه أنت .. أقصد .. أقصد تقربي منه .
فالت الفتاة وقد نفذ صبرها : يا أمي إنه أعلى مني بكثير .. هكذا أشعر .. ثم إن على عيني زهرة .. لا تنسي أن على عيني زهرة .
ثم ساد الصمت من جديد . وكان ثمة مراهق أبله يعني في الزقاق الترابي الممتم :

ياالاسمراني بالاسمراني حياك بقلبي ما هو بلساني
وان كان يا ولد بدك ايساني دربك عالما قلبها حنوننا

كانت فطوم قد مدت الفرائش لأمها . ثم أحكمت اقفال باب الغرفة من الداخل ، وخفضت نور مصباح الكاز ، وخلعت ثيابها ثم ارتدت قميص النوم الحريري الأبيض الذي قد لا يوجد مثله لدى أية بنت أو امرأة في هذه القرية ، فهن فقرات ، وهن لا يعرفن كيف يرتدين مثل هذه الثياب المدنية . وكذلك شبان القرية ليس بينهم من تمدن وارتدى البنطلون

من الخريف شاحبا حزينا ، ولم يحدث شيء . كانت الايام تمر ساخنة ملتهبة في كثير من الاحيان ، وأمواج الغبار الناشف كانت تلدغ بذراتها جلد كل من يقف أمام مصطبة باب بيته ، كأنما كان الصيف أملا عتيدا يرفض الانزياح عن هذه القرية ، أو عن بيت معين في هذه القرية .. على أن فترات راحة من ايام باردة متقلبة كانت تمر بين الحين والحين فتتمشى القلب بأمل جديد . وكانت الفتاة طوال تلك الايام تقف أمام باب بيتها بعد عصر كل يوم .. كانت تتطلع إلى القرية والناس والاطفال والبنات اللواتي تزوجن جميعا وأصبحن امهات . كما كانت تلهو أحيانا بالتطلع ساعات إلى الفيوم التي أصبحت تحوم بعد عصر كل يوم هادئة لطيفة . على أن ألوانها تنقلب عند المغيب فتصبح نارية ملتهبة حتى لو كانت الدنيا صقيبا . وكان في السماء غيمة معينة تتجلى على شكل حمامة بيضاء . وبعد قليل تهجم عليها غيمة متأججة تشبه انسر الجارح الذي يحمم وجناحاه يفلحان الجو .. والفتاة التي على عينيها زهرة تقف هناك عند باب بيتها ، وتظل واقفة هادئة حتى نذوب الفيوم وتخيبو . وحين تغتم العين كانت فطوم تعود إلى البيت ، فتخلع طوق الذهب من عنقها، مثلما فعلت البارحة ، وتدسه تحت الفراش ، ثم تشعل مصباح الكاز وتقف أمام المرأة لتخلع عنها ثوب المخمل الناري ، والوردة التي تشكل بها رأسها بعد عصر كل يوم .

تحركت الام المنزوية فوق طراحتها في ركن معتم وسألت : أهذه انت يا فطوم ؟

اجابتها فطوم : نعم .. انا .

تململت الام مرة أخرى في ركنها الممتم الذي استراحت فيه هكذا منذ سنوات ، منذ قيل انها اذابت نور عينيها فصرة فطرة على الرجل الذي مات .. ثم قالت : أين اخبات طوق الذهب ؟

اجابتها الفتاة الكبيرة : في مكانه المهود .

فالت العجوز : والكلب ؟ .. انني لم اسمع له حسا اليوم .

ارخت الفتاة جديلة شعرها من تحت المنديل وقالت : بل هو لا يزال في مكانه المهود أيضا .

فسألته العجوز : واغلقت باب الدار جيدا ؟ وتفقدت القفل ؟

اجابتها الفتاة : ولكن لم كل هذه الاسئلة يا أمي ؟ مم تخافين ؟

فالت الام وهي تتلملم فوق طراحتها : طوق الذهب يا فطوم . والله لن يسرقه الا واحد من هؤلاء الاجراء الذين يعملون السنة عندنا . ابن آدم أسود رأس يا فطوم . كل اهل القرية يحسدوننا . عجوز عمياء وابنتها وثروة طائلة ووطن وذهب .. ولا رجال .. أنت لا تعرفين الناس يا فطوم .

فانتفضت الفتاة قائلة : تصعبين انني لا ازال صغيرة ؟

اجابتها الام : بل انت فتاة تفضلين الرجال بقدرتك على العمل ولكن .. فاطمتها الفتاة : لا تبعدينا عن الموضوع الاصلي . ألم ابلغ الثلاثين؟ فسولي .

اجابتها الام : حين يهل الشهر تبلغين الثانية والثلاثين .. لا حول ولا قوة الا بالله .

فالت الفتاة غاضبة: وتريدين مني أن احافظ على طوق الذهب؟! .. اظنني ساخرج غدا إلى الباب ، واقف عند رأس التل وأنادي : يا من يريد أن ينهب ما يشاء .

الخطبة الاخيرة

ما للعبارات التي ،
أعدتها .. حفظتها ..
جهدت في تزويقها للحظة الاخيره
تعشرت في شفتي ،
هزيلة .. كسيره ،
ولم أقل منها سوى « الى اللقاء ! »

وبعدها ،
يحول ما بيني وبين عمق عينيك مدى ،
وغربة .. أقسى من الموت ..
وسوف تقفر الايام - يا صديقتي -
لا ضوء .. لا ندى ..
لا شيء .. غير الحزن ، والصمت !

فايز صياغ

بيروت

الى اللقاء ..
لشد ما ترعيني الحروف !
أهمسها ،
أحس فوق خافقي مخالب الشتاء
ورعشة المساء ، وارتجافة الخريف
أقولها اليوم ..
وأدري ان بعد اليوم لا لقاء .

وقبل لحظتين كان وجهك الوديع في يدي
لوحة .. غريبه

حدقت في روائها ..
وذبت في صفائها ..
كنت أهم ان أقول .. ان أقول .. ما أقول ؟ ..
وفي مدى عينيك تخرس الحروف .. تستحيل ،
تنهدات مرة ، وحسرة كئيبه .

والقميص الابيض الكوكب الا اربعة أو خمسة ، سلمان أفضلهم . وربما كان
سلمان أجملهم أيضا ، دعك من نظارتيه الطينتين اللتين جعلانه يبدو وكأنه
يتطلع في الدنيا ولا يفهم شيئا . لكن سلمان ليس ابله بحال من الاحوال .
بل هو بلا خلاف من أذكى شباب القرية وأكثرهم لطفا وتهذبا . لكنه ..
لكن حظه قليل . « لينه يحضر هنا الان » . وأحسبت فطوم بالعمه تكاد
نخفها ففتحت النافذة ووقفت تتأمل القرية النائمة . « لينه يحضر
هنا الان » .

قالت الام من تحت اللحاف : « لا يصيبك برد .. الدنيا برد
وقميصك حرير » .

ظلت فطوم صامته خلف النافذة تتأمل القرية النائمة والسماء التي
كلها ليل صامت . وأنعشها هذا التسييم البارد الذي كان يزيد من لهيب
داخلي غامض يشوي الجسد .. ثم سمعت صوت طلقات ناربه من هناك ،
شرقي الضيعة ، لا شك في أنه سلمان هناك يسكر مع رفاقه في بيت
صطوف العلي . لقد أصبح سلمان من عشاق الخمرة منذ سقط في
امتحان القبول للدراسة المجانية بدار المعلمين العليا .. لو أنه قابلني
يومذاك لأعطيته ، لقلت له : خذ واهب الى الجامعة وادرس على حسابي .
وأغلقت النافذة .. ألا بد من أن نعود الى النقطة ذاتها . لقد
ضاعت الفرصة وإنشئ الامر . ثم ما يدرينا ان كان سلمان مشغولا بشيء
اسمه زواج ؟ . انه يفادر القرية كل شهر أو شهرين ويجول في الدنيا
بحثا عن وظيفة . ثم يعود الى القرية خائبا . انه ينهار يوما بعد يوم .
ولم يبق له من شاغل الا أن يسكر كل ليلة على حساب رفاقه ..

قالت الام من تحت اللحاف : « تعالي نامي .. كل اللوم يقع عليك
وحده . أنت لا تغالطين أحدا من الناس . لم تشتركي في دبكة أي عرس
ولم تحضري أي عيد » . وتساءبت المعجوز مرة أخرى تحت اللحاف
وقالت : « أقسم ان أحدا من الشباب ما عاد يذكر منذ عشر سنوات » .
ولكن سلمان لا يزال يذكرها . فهو كلما احتاج الى شيء من المال
يرسل خالته زوجة أبيه الى فطوم . وهي لا تبخل « كم يريد ؟ عشر
ليرات ؟ .. خذي عشرين » . ثم لا تراه بعد ذلك أبدا . لينه يحضر
هنا الان .

وأحسبت فطوم بأن رجلا يظلمها . وعوى الكلب في الباحة . وفي
الوقت ذاته طارت الفتاة الكبيرة أو طار صوابها فهي لا تدري ماذا تفعل .
انه سلمان لا غيره . ثم أسرعرت ترتدي ثوبا فوق قميص النوم فقد شعرت

بأنها عارية .
قالت الام : افتحي له الباب وليدخل . أريد ان أعرف ماذا يريد .
وحين فتحت مظلوم الباب كانت تحمل المصباح بيدها اليسرى
وتتخاضى أن يقع النور على عينها التي تغطيها زهرة . على ان سلمان
ظل مطرفا .
قالت : تفضل استاذ . أمي يحب ان تراك . أقصد ان تزورها فهي
لا ترى .

قال : أعلم ذلك .
ودخل خلفها .. وكانت الام قد تربعت فوق فراشها ومسدت
حواشيه قدر استطاعتها . فهي سيدة الموقف . بينما كان سلمان يتعثر
في مشيئته ، ويخشى ان يتأنيء في كلامه ، لا بل انه كان يغطي فمه بحرمه
ويسعل بين العين والحين .

قالت المعجوز : لا تخجل يا سلمان . أنا مثل امك .
لكن سلمان خجل فعلا .. أو ربما خشي ان نفوح منه رائحة العرق
إذا ما تكلم . فظل صامتا ينظر الى حدائه .
قالت المعجوز : لا يعيب الرجل أن يشرب يا سلمان . لكن يعيبه ان
يسكر فهل أنت سكران ؟
قال : أظن .

قالت : ومع ذلك فأنت شاب مهذب . قل لي ، ماذا تريد ؟ . قل .
لا تخجل .

تمتت الفتاة الواقفة حد العتبة : أريد ان أتزوج ابنتك فطوم ..
ستوافق أمي حتما وأنا سأطلب منه أن ينظر مليا في عيني اليمنى كي لا
يتهمني بالفش .. ثم تقدمت نحوه ووضعت المصباح امام عينيه : « انظر
يا سلمان . انظر جيدا في عيني » .

قال سلمان : وما شأنني بعينك يا فطوم ؟ هل أنا طيب ؟
فسألته الفتاة غاضبة : اذن ماذا تريد ؟
قال : « لا شيء » ونهض بهم بالخروج . على ان الام المعجوز صرخت
به : « فف مكانك . لن تخرج قبل ان نعرف ماذا تريد » .

قال ، وقد شعر بأنه وقع : كنت أريد ان استقرض منكم خمسين
ليرة أنا بحاجة اليها .. سوف أردنها لكم بعد ان أؤمن الوظيفة .. هذه
المره سأجد الوظيفة حتما ..

شريف الراس

دمشق